المعنى الوضعي لحروف المعاني: تحرير وتفسير

سلطان مهيوب الكامل*

Sultanmahyoub@gmail.com

مخلص:

يقوم هذا البحث بمراجعة قوائم المعاني المنصوص عليها في باب حروف المعاني عند النحاة وغيرهم، منطلقًا من فرضية مفادها أن قوائم الحروف الدلالية تشتمل على معان وضعية وأخرى سياقية، وربما على معان مقحمة بملابسات خفيّة. وينطلق البحث من سؤال مفاده: أكل المعاني المُدرجة في قوائم الحروف وضعية/ أصلية أم لا؟ ويتفرع عنه سؤال آخر مفاده: هل كان السلف على وعي بالمستويين: الوضعي وغير الوضعي عند جمعهم لمعاني الحروف؟ وللإجابة عن هذين السؤالين، راجعنا بعضَ حروف المعاني، بحيث تكون نماذج كاشفة عن مشكلة هذا البحث، وفي سبيل استخلاص المعنى الوضعي وتمييزه من غيره. وقد استعنا ببعض المفاهيم الأصولية والبلاغية. وقد توصل البحث إلى جملة من النتائج من أهمها: أن المعاني المدرجة في قوائم الحرف بعضها وضعي وبعضها سياقي، وأن إدراجها معا دون تنبيهٍ فيه تكثير للباب وتشويش للمعنى الوضعي/ الأصلي، فضلا عن أن بعض المعاني لا يثبت للحرف أصلا، وإنما حدا إليه بعض الملابسات الخفية.

الكلمات المفاتيح: حروف المعاني؛ المعنى الحرفي؛ المعنى الوضعي؛ المعنى القضوي؛ المعنى السياقي.

* مساعد تدريس - قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة قطر – دولة قطر.

مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بالدراسات اللغوية والأدبية
الآداب للدراسات اللغوية والأدبية
(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

The Positive Meaning of the Letters' Meanings: Editing and Interpretation

Sultan Mahyoub AL-kamil*

Sultanmahyoub@gmail.com

Abstract:

This research sheds light on the lists of meanings stipulated in the chapter on meanings when grammarians and others relied on the hypothesis that semantic lists of letters include meanings and status and other contextual, and perhaps on meanings inserted with hidden circumstances.The research is based on the question: Eating the meanings included in the lists of letters position / original or not? Another question is derived from it: Was the predecessors aware of the two levels: positional and non-positivist when they combined the meanings of letters؟ To answer these two questions, we have reviewed some letters of meanings, so that they can reveal examples of the problem of this research. In order to extract the positional meaning and distinguish it from others, the researcher has used some basic and rhetorical concepts. The research has reached a set of results, the most important of which are: the meanings included in the lists of letters are contextual, and that their inclusion together without warning in it increases the section and confusion of the position / original meaning. In addition, some meanings do not prove the letter at all, but rather some circumstances have led to its hidden.

Key Words: Letters of Meanings, Literal Meaning, Positional Meaning, Judicial Meaning, Contextual Meaning.

* Assistant Teacher, Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Qatar University, Qatar.

المقدمة:

حروف المعاني من الأبواب التي حظيت بالاهتمام في تراثنا العربي؛ فقد خصّها النحاة بالكلام في كتبهم، وبلغ بهم الأمر إلى أن أفردوها بالتأليف استقلالا، ككتاب (معاني الحروف) للرماني، وكتاب (الجنى الداني في حروف المعاني) للمرادي، وكتاب (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) لابن هشام الأنصاري. واهتم بها الأصوليون لتعلقها بالقيود والأحكام ومتعلقات التشريع، حتى أن القرافي أفرد حروف الاستثناء وحدها بكتاب مستقل وسمه بـ(الاستغناء في أحكام الاستثناء).

ومن وجوه عناية النحاة بحروف المعاني سعيهم إلى رصد سلوك كل حرف من هذه الحروف في قائمة خاصة بمعانيه؛ تيسيرا على الطالب وتهذيبا للمتنافر، واختصروا بصنيعهم هذا جل الطريق علينا، فجزاهم الله عنا خير جزاء.

وكل عملٍ مهما بلغ إتقانه وإحكامه محتاج -بمقتضى القصور البشري- إلى التصحيح والمراجعة والنظر، وهذا أمر بَدَهي تدركه الفِطَر السليمة. وقد لاح لي وأنا أدرس النحو أن قوائم معاني الحروف التي جمعها السلف تجمع المعنى الوضعي، وهو المعنى الثابت بقوة النظام اللغوي، إلى جوار المعنى السياقي؛ وهو المعنى الثابت بقوة الكلام أو بقوة المتكلم، فإذا قرأ الباحثُ المعنى لم يدر أهو معنى يقتضيه الوضعُ أصالةً أم معنى مكتسب تحصّل بقرائن خارجية تبعًا.

ومن هنا تولّد لديّ سؤال هذا البحث، وهو: هل كل المعاني المدرجة في قوائم الحروف وضعية؟ وهل كان السلف على وعي بالمستويين عند جمعهم لمعاني الحروف؟

لا يخفى أن الإجابةعن هذين السؤالين قائمة على التسليم بضربين من المعاني، هما:

1- المعنى الوضعي أو الحرفي (Literal Meaning).

2- المعنى السياقي أو القصدي (Speaker'sMeaning or Contextual Meaning)

وهما مستويان أوسعهما التداوليون بحثا في كتبهم، ومن أوسع من كتب فيهما فرانسوا ريكاناتي (Francois Recanati)، إذ أنشأ كتابا مستقلا يرصد فيه مساحات الاشتباك بين المستويين، وقد أسماه (Literal Meaning)[1].

وهذا المعنى الوضعي يسميه بعض الباحثين (المعنى القضوي)؛ لأنه المعنى الذي يقضي به اللفظ، ويسمي المعنى السياقي أو القصدي (المعنى المقصود بالقول)؛ لأنه ثابت بقوة المتكلم وإرادته، وهو جِماع المعاني المعجمية والنحوية والمقامية[2].

وبما أني قد ذكرتُ المعنى الحرفي والقصدي، فمن المناسب التنبيه هنا إلى أن جل نشاط غرايس (H.P. Grice) كان منصبا على تجسير الهوة الواسعة بين المعنى الحرفي ومقصود المتكلم بمبادئ التعاون الشهيرة، وهي مبادئ سعى بها إلى معرفة قواعد التخاطب التي تسمح للمتخاطبين الانتقال من المعنى الوضعي إلى المعنى الاستعمالي عند التواصل دون شعور، أو إلى معرفة القواعد التي تسمح للناس بأن يقولوا أكثر مما ينطقون[3].

ولسلفنا الصالح عناية فائقة بهذين المستويين؛ فقد أطلق عبد القاهر الجرجاني على الأول (المعنى)، وهو المعنى اللفظي، وعلى الثاني (معنى المعنى)، وهو المعنى المفهوم الذي يقود إليه المعنى اللفظي[4].

أما الأصوليون فقد بلغوا الغاية في ذلك؛ إذ بنوا مباحث الألفاظ لديهم على قِسمين هما: المنطوق والمفهوم، أو الملفوظ والمعقول، وهذا وعي بما انتهى إليه التداوليون اليوم[5].

وعلى الرغم من حضور المستويين في وعي السلف عموما، لا يجد الناظر في قوائم حروف المعاني أن المعاني مقسمة بناء على معان مستفادة بقوة الحرف، وأخرى مستفادة

بقوة الكلام. ولا يخفى أن إيراد المعنى السياقي أو ما كان في منزلته إلى جوار المعنى الوضعي فيه إخلال كبير؛ لأنها معان غير محدودة لأجل اعتمادها على ملابسات السياق.

وإني لأفترض في هذا البحث أن ضمّ المعاني الخارجية إلى المعاني الأصلية في حيز واحد تكثير للباب، وتحميل للحرف ما لا يطيق، وتشويش للمعنى الأصلي؛ ذاك أنها معان طارئة للحرف، وإيرادها إلى جوار الأصلية إنما هو بمثابة إيراد المعنى المجازي في قائمة المعاني المعجمية للكلمات، ولا يخفى أن المجازات معان طارئة تنتجها علاقات خارجية لا تكاد تنحصر، فضلا عن أن تطّرد وتنقاس، وإنما هي معان رجراجة لا يتكفل بها نظام اللغة أو الوضع، ولذلك فهي تتغير بحسب كل متكلم وكل مناسبة ومقام.

وإلى المشكلة السابقة، أضيف أن قائمة معاني الحرف الواحد قد يرد فيها ما ليس من معانيه أصلا، إما لشبهة خفيّة أو للبس أو تحاميا لمعنى لازم يقضي به معنى الحرف الأصلي، يُناكف ما عليه المعالج من اعتقاد أو أصول مذهبية أو نحو ذلك.

ومن روائع ابن هشام الأنصاري أنه انتبه إلى ما نحن بصدده، وهو المعنى الأصلي والتبعي للحرف، فقد أشار في مواضع من كتابه (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) إلى وجود معان للحرف قد اُستفيدت من جهة خارجية إلا أنها حُكيت في بعض كتب السلف على أنها معان أصلية.

فبعد أن عدّد ابن هشام معاني حرف (أو)، علق قائلا: "التحقيق أن (أو) موضوعة لأحد الشيئين أو الأشياء، وهو الذي يقوله المتقدمون، وقد تخرج إلى معنى بل وإلى معنى الواو، وأما بقية المعاني فمستفادة من غيرها"[6].

وبعد أن نقل رأيَ مَن قال بأن حرف (إذْ) يكون للتعليل، علق متسائلا: "وهل هذه حروف بمنزلة لام العلة أو ظرف والتعليل مستفاد من قوة الكلام لا من اللفظ؟ فإنه إذا قيل: ضربته إذ أساء وأُريد بـ(إذ) الوقت اقتضى ظاهر الحال أن الإساءة سبب الضرب"[7].

ومن قبل ابن هشام، التفت الزمخشري إلى هذا الإشكال، إذ رأى أن (لعل) -وهو في الأصل للترجي أو الإشفاق- قد يُشرَب معنى (ليت) بقوة الكلام كما في قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾[8]. وهو يريد بالإشراب أن الكلام هو الذي تسبب بمعنى التمني لا الحرف، وعليه فالتمني في (لعل) معنى طارئ لا أصيل[9]، وعدُّه ضمن معاني الحرف فيه تكثير للباب لخروجه عن حد الوضع.

يقول المرشدي، شارح عقود الجمان، تعليقا على معنى التمني في (لعل) المستفاد بقوة الكلام: "ومثل هذا تمنٍّ عند صاحب المعاني لتعلّق نظره بالمعنى، والنحوي إنما سمّاه ترجيا؛ لاختصاص نظره بالألفاظ"[10].

وعلى ما تقدم، رأيت أن يتجه عملي في هذا البحث إلى مراجعة بعض معاني الحروف المنصوص عليها في كتب المعاني أو التفسير، بحيث أعزل المعنى المستفاد بقوة التركيب أو السياق عن المعنى الأصلي للحرف، فيخلص بذلك لنا معنى الحرف وحده دون المعاني الطارئة.

ولتمييز المعنى الوضعي عن غيره، وتحرير المعنى الأصيل من سواه، احتجتُ إلى اقتراض بعض المفاهيم المتصلة بعلمي الأصول والبلاغة؛ وذلك لعناية أصحابهما بالمعاني السياقيّة الخارجة عن حد الوضع، وهي:

- أولا: دلالة الالتزام، وهي "دلالة اللفظ على لازم المسمى سواء كان اللزوم ذهنيا أم خارجيا"[11]؛ ويشار بها إلى المعنى الخارج عن دلالة المطابقة، سواء كان لازما بسلطان العقل أم بسلطان العُرف[12].
- ثانيا: مفهوم الموافقة، ويعرفه الآمدي بقوله: "هو ما يكون مدلول اللفظ في محل السكوت موافقا لمدلوله في محل النطق"[13]، ومؤدى هذا المفهوم أن الحكم المُسنَد

إلى المذكور ينسحب إلى غير المذكور، وهو مرادهم بالمسكوت عنه؛ إما لأن المسكوت أولى بالحكم منه أو لأنه مساوٍ له.

- ثالثا: مفهوم المخالفة، يقول القرافي في تعريفه: إنه "إثبات نقيض حكم المنطوق به للمسكوت عنه"[14]. وبتعبير مغاير، هو أن يتعلق الحكم بأحد وصْفَي الشيء على نية نفيه عن الآخر[15].

- رابعا: دلالة الإيماء، ويعرفها الشنقيطي بقوله: "هي أن يقرن الوصف بحكم لو لم يكن الوصف علة لذلك الحكم عابه الفطن بمقاصد الكلام؛ لأنه لا يليق بالفصاحة"[16]، ومؤدى التعريف أن الإيماء تعليل مستفاد بقوة القِران والتضام لا الأداة اللفظية، وهي أمور تابعه لقواعد التخاطب التداولية التي يسميها السلف "سنن العرب في كلامها" أو "معهود المتكلمين".

- خامسا: الاستئناف البياني: وهو فصل الجملة عن التي قبلها لكونها خرجت مخرج التعليل لها، وهذا الاستئناف مما اعتنى به أهل البلاغة في باب الفصل والوصل، وهو المقصود بقولهم: (شبه تمام الاتصال)[17].

علما بأن دلالة الالتزام مبحث مشترك بين أهل الأصول والبلاغة، أما مفهوم الموافقة والمخالفة والإيماء فهي مباحث انفرد بها أهل الأصول عمن سواهم، وأما الاستئناف البياني فهو مبحث مُعرِق في علم البلاغة، يرجع الفضل فيه إلى مفترعه الأول عبد القاهر الجرجاني. وهذه المفاهيم -إن شاء الله- قد تساعد في تحرير المعاني وفلّها، كما سنرى في تضاعيف البحث.

وحتى لا تتسع دائرة البحث، ورغبة في التركيز، رأيت أن أقصر المراجعة على الحروف التالية، وهي: (إنّ، اللام، إنْ، إلّا، هل، أو، لعل، واو العطف). فتكون بذلك نماذج كافية لتسليط الضوء على إشكالية البحث الأساسية.

(إن):

نقل السيوطي عن ابن جني أن حرف (إنّ) يكون للتعليل[18]، ومثّل له بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيم﴾[19].

وعند التأمل، نجد أن التعليل طارئ مستفاد مما يسميه أهل الأصول (الإيماء)، ومفاده هنا أن التعليل حصل بقوة التضام بين الجملتين؛ أي بقوة الاستئناف البياني الذي يدرسه البلاغيون في باب الفصل والوصل.

وعليه، فلا يصح أن يقال إن التعليل من معاني (إن) الوضعية؛ فحرف (إنّ) على بابه الأصلي، وهو التأكيد. فإن قيل: وكيف يكون للتأكيد في هذا الموضع؟ فالجواب: لأن الذين يقعون في المعاصي الجسام غالبا ما تعبث بهم المخاوف والشكوك حتى لربما قنطوا من غفران الله لهم، وهذا من باب مراعاة حال المخاطب النفسية.

ومن الشواهد على أن التعليل حاصل بغير (إن)، قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[20]؛ فالتعليل حاصل بلازم دلالة الفاء التي ترتب ما بعدها على ما قبلها[21]،يقول ابن عاشور: "وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ علة لكلام محذوف تقديره: الله يغفر لهم لأنه غفور رحيم"[22]، ولو كان التعليل حاصلا بحرف (إن) لكان في الكلام تعليلان، وهذا لا يصح، وعليه فالتعليل في الآية السابقة لم تتسبب به (إنّ).

ودليل آخر على استفادة التعليل بقوة الكلام، لا بحرف (إنّ) أن التعليل بالاستئناف البياني يحصل بغير حرف (إنّ)، نحو: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَة (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَة﴾[23]؛ أي: لأنها إلى ربها ناظرة[24]، ولم يقل أحد -فيما أعلم- أن حرف (إلى) يكون للتعليل.

اللام:

ذكر الثعالبي وغيره أن حرف (اللام) يكون للعاقبة أو الصيرورة أو المآل[25]، وجميعها بمعنى واحد، ومثّل لهذه اللام بقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[26]؛ أي: لتكون العداوة عاقبة فعلهم، فما بعد اللام عاقبة التقاطهم لا علته؛ لأن العاقل لا يأخذ الشيء لكي يكون عدوا له بإرادته.

وعند المراجعة، نجد أن (اللام) هنا على أصلها، وهو التعليل، إلا أنه تعليل وارد بطريق المجاز، كما ذكر الزمخشري[27]، والمجاز معنى تركيبي لا إفرادي؛ أعني أنه يتحصل بقوة الكلام، ولذلك حقه أن يُعزَل. وحمل (اللام) على العاقبة فيه تضخيم لباب معاني الحروف، وتفويت للذة.

ومن شواهد وقوع (اللام) للتعليل المجازي في القرآن، قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾[28].

ومن شواهدها في الأثر، أن مَلَكًا بباب السماء يقول كل يوم: "لِدوا للتراب، وابنوا للخراب"[29]. ومن شواهدها في الكلام العادي، قول الأب لابنه العاصي: ربيتك لتضربني، أو أحسنت إليك لتؤذيني![30].

ومعنى العاقبة أو الصيرورة غير مدفوع، لكنه لا يثبت بقوة الحرف، فهو معنى طارئ بمنزلة معنى الإنكار أو التوبيخ أو التقرير في أدوات الاستفهام، وهي معان لا تدفع أصل معنى الاستفهام، بل هي قائمة على تقدير معنى الاستفهام، غير أنه لا ينبغي إدراج المعاني الطارئة ضمن معاني الأداة الأصلية.

(إنْ):

ذكر ابن قتيبة أن حرف (إنْ) يأتي بمعنى (إذ)[31]، ومثّل له بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين﴾[32]، ومثّل له الكوفيون بقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ﴾[33].

وذكر زين الدين الرازي أنه حرف يأتي بمعنى التعليل، ومثّل له بقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين﴾[34]. وعن قطرب، أنه حرف يأتي بمعنى (قد)، ومثّل له بقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾[35].

ونلحظ أن باعث التوجيهات السابقة هو التخلص من لوازم مفهوم المخالفة المتعلق بحرف (إن) الشرطية؛ فالأفعال الواقعة بعد الشرط في الأمثلة السابقة متحققة الوقوع، والشرط قد يُفهم منه التشكيك بإيمانهم، أو أنه بعيد، أو لمّا يتحقق، أو قد يُفهم منه أن جواب الشرط متعلق بفعل الشرط تعلقا حقيقيا: وجودا وعدما.

و(إن) في جميع الأمثلة شرطية، لكنها على جهات مختلفة، وعدم تقدير ذلك يذهب بالمعاني الطارئة عليها، فهي تأتي:

- تارة لإلهاب المشاعر وإذكائها، كقول الأب لابنه العاصي: (أطعني إن كنت أباك!) ولا يفهم من الشرط التشكيك في أبوته ولا تعليق الطاعة بشرط حقيقي[36]، بل الشرط شرط تهييج لا تقييد، لا مفهوم له عند ارتفاع الشرط لسقوط الخطاب أصلا؛ أي: فإن لم أكن أباك، فقد سقط عنك الخطاب[37].

وعلى هذا تخريج: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين﴾[38]، وقوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِين﴾[39]، وقوله تعالى على لسان مريم: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[40].

- وتارة بدافع التذكير أو التخجيل والتأديب، نحو قوله عليه -الصلاة والسلام-: "إن كنتَ عبد الله فارفع إزارك إلى أنصاف الساقين"[41]، فهي عبارة خرجت مخرج الشرط بغرض تذكير المخاطب بعبوديته لله أو تخجيله، لا التشكيك في ديانته.

- وتارة بدافع استبعاد الشيء، نحو: (قل لفلان إنْ سمع لك)، وعليه يتخرّج قوله تعالى: ﴿إِن تَّنفَعَتِ الذِّكْرَى﴾[42].

- وتارة بدافع التنزل في الجدل، نحو: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[43]. وقد حمل بعضهم (إن) الشرطية في الآية على (إن) النافية، احترازا من مفهوم الشرط[44]، وهذا فيه تكلف وإذهاب للمعنى، وتجاوز للفاء الرابطة.

والمعاني هذه كلها تبعية مستفادة بقوة الكلام لا الحرف نفسه. وأما (إن) في قوله تعالى: ﴿إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ﴾ فهي في أصلها شرطية، لكنها هنا وردت في عبارة (إن شاء الله)، وهي عبارة جامدة، أجزاؤها غير مقصودة، لأنها صارت تقال للتبرك، أو هي على تعليم العباد كيف يتكلمون إذا أخبروا عن المستقبل، وكلا التوجيهين حكاه ابن هشام، رحمه الله[45].

(إلّا):

ذكر الثعالبي أن حرف (إلا) يأتي بمعنى (لكن)[46]، ومثّل له بقوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (22) إلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾[47]. وعن الأخفش والفراء وأبي عبيدة أنه حرف يأتي بمعنى الواو العاطفة[48]، ومثلوا له بقوله تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾[49].

والدافع وراء أقوالهم هذه هو التخلص من لوزام مفهوم المخالفة الذي يقضي به الاستثناء، حتى لا يُفهم أنه -عليه الصلاة والسلام- مسيطر على من تولى وكفر مثلا، أو أن للظالمين حجة. وحرف (إلا) هنا على أصله، وهو الاستثناء لكنه استثناء منقطع، وهو قول

الجمهور كما نقل ابن هشام[50]، ولا حاجة لتكثير معاني الحروف. والانقطاع مستفاد بقرائن خارجية، وهو قائم على تقدير أن الأداة للاستثناء، ودون تقدير ذلك لا يقع في نفس المستمع نشوة الانقطاع في الاستثناء.

(هل):

نقل ابن جني عن بعضهم أن حرف (هل) يأتي بمعنى (قد)، وأثبت ابن هشام هذا القول للزمخشري، وقد مثلوا له بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ﴾[51]، وقوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ﴾[52].

و(هل) حرف استفهام لطلب التصديق الإيجابي، كما هو معلوم. واقتضاء أن المتكلم الحكيم منزه من كل عيب حملهم على القول بأن (هل) يكون بمعنى (قد)؛ فالسائل في الأصل يطلب ما هو خارج عن علمه، وحاشاه تعالى أن يكون كذلك. والاستفهام هنا على بابه، إلا أنه استفهام مجازي لأجل التقرير، والتقرير معنى مستفاد بقوة الكلام، ولا يتحصل التقرير إلا بتقدير أن الأداة لطلب التصديق أولا، وإيداع هذا المعنى ضمن قائمة معاني (هل) تكثير[53].

(أو):

ذكر الفراء أن حرف (أو) يأتي بمعنى (بل)، عند قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُون﴾[54].

وحرف (أو) -كما هو معلوم- يكون إما للشك أو التخيير أو الإباحة، والذي حدا بالفراء إلى إضافة معنى (بل) إلى (أو) هو دلالة تنزيه المتكلم الحكيم عن كل عيب، والشك عيب لا يصح بحال على المتصف بالكمال.

وقد يُسلّم للفراء ما ذكر في حالٍ كان الشك حقيقيا، غير أن (أو) هنا مستعملة على المجاز، من باب إخراج المعلوم يقينا مخرج المشكوك فيه بغرض تصويره للمخاطب؛ لأن المخاطب إذا رأى مثل هذا العدد يشك ويخمّن. وحَمْلُ (أو) على معنى (بل) يذهب بروعة المعنى، بالإضافة إلى أنه تكثير للباب[55].

(لعل):

ذكر الثعالبي أن حرف (لعل) يأتي بمعنى (كي)، ومثّل له بقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُون﴾[56].

وسبب هذا الصنيع هو التخلص من لوازم الترجي في حق المتكلم الحكيم، حتى لقد حُمل حرف (لعل) على معنى التعليل في كل موضع امتُنع فيه الترجي الحقيقي[57].

وحرف (لعل) هنا على بابه، والمتكلم الحكيم قد يُخرج الكلام مخرج الترجي للإشفاق والتلطف على جهة المجاز[58]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[59]؛ أي: على رجائكما اذهبا[60].

واو العطف:

نقل ابن هشام عن جماعة من السلف أن الواو تفيد الترتيب[61]. وقد راجعهم في ذلك جماعة آخرون، بإشارات نصوصٍ جاءت فيها الواو دون إفادة الترتيب، نحو: ﴿وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾[62]، وفي آية أخرى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا﴾[63]، فالمخاطب الأول لم يقع في نفسه من ترك الترتيب نفور أو شعور بالتناقض.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِين﴾[64]، والسجود بعد الركوع. ومنه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَاد

(12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾[65]، وفي آية أخرى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُود (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوط (13) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾[66]، فقدّم في واحدة منهما ما أخّره في الأخرى، مما يعني أنها لا تدل على الترتيب في نفسها، وإنما على مجرد الإشراك[67]. وهذا الترجيح في حقيقته مستخرج بطريق الإشارة.

غير أن (الواو) قد تتشرّب معنى الترتيب في مواضع، نحو: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[68]، ولكنه على كل حال ترتيب طارئ عليها، مستفاد من الكلام بطريق التضام لا الواو؛ أي: بقرينة خارجية[69].

الخاتمة والنتائج:

اتضح من خلال البحث أن معاني حروف المعاني بحاجة إلى مراجعة وتدقيق وفرز، حتى يتحرر المعنى الوضعي من غيره. وقد رأينا في أثناء البحث أن المعاني المدرجة في قائمة الحرف لا تخرج عن ثلاثة معان: إما وضعية، وإما طارئة سياقية، وإما معان لا تصح بحال.

فالتعليل في (إنّ) معنى طارئ، والصيرورة أو العاقبة في (اللام) معنى طارئ، والترتيب في (الواو) معنى طارئ. والمعاني الطارئة لا تلغي المعاني الوضعية، بل هي قائمة على أن وجود معان وضعية، تماما كحال المجاز مع الحقيقة، فالمجاز، دون تقدير بقاء المعنى الحقيقي للكلمة، لا تكون له قيمة.

وأما القول بأن (إنْ) الشرطية تأتي بمعنى (إذْ) أو بمعنى التعليل أو بمعنى (قد)، فهو قول لُجئ إليه تخلصا من مفهوم المخالفة الناتج عن (إنْ) الشرطية، وعليه فهي أقوال لا تصح. والصواب الذي ساق إليه الاجتهاد أن المعنى المقصود في عرف الاستعمال قد يخرج مخرج الشرط لأغراض بلاغية، نحو: الإلهاب، والتخجيل، والتأديب، والاستبعاد، والتنزّل، وهذه الأغراض لا ينعقد لواؤها دون تقدير أنّ (إنْ) الشرطية باقية على حالها.

والقول بأن (إلا) تأتي بمعنى (لكن) أو بمعنى (واو) العطف قول لا يصح، وإنما باعثه التخلص من مفهوم المخالفة الذي يقضي به الاستثناء، وقد رأينا أن الاستثناء في المواضع المشكلة كان موجودا على المجاز، وهو الذي يُعبَّر عنه بالاستثناء المنقطع.

وأما القول بأن (هل) تأتي بمعنى (قد)، والقول بأن (أو) بمعنى (بل)، والقول بأن (لعل) بمعنى (كي)، فأقوال مردها تنزيه المتكلم الحكيم من لوازم الجهل المودع في الاستفهام والشك المودع في (أو)، والله يُخاطب عباده بمعهود كلامهم، ومن معهودهم، إذا تكلموا، أن يُخرجوا المعنى المتيقن منه على السؤال أو الشك.

وفي ختام هذا البحث، أرى أنه من الجدير عمل بحوث مستقلة غايتها مراجعة كل معنى يورد في قائمة الحرف، مع فحصه وتدقيقه، وبذلك تتضافر جهود السلف مع جهود المعاصرين. وأرى أن اقتراض المفاهيم من حقول مختلفة مفيد في نقد المسائل وتوجيهها، بل وفي تجديدها وتثوير مسلماتها، والله أعلم.

الهوامش والإحالات:

(1) ينظر: فرانسوا ريكاناتي، المعنى الحرفي. ترجمة: أحمد كروم. دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1. 2018م.

(2) ينظر: ألفة يوسف، تعدد المعنى في القرآن - بحث في أسس تعدد المعنى في اللغة من خلال تفاسير القرآن. جامعة منوبة، دار سحر للنشر، تونس، ط2، 2002م ، ص155.

(3) للاطلاع على مبادئ غرايس والاقتضاء التداولي، ينظر: عادل فاخوري، محاضرات في فلسفة اللغة. دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت، ط1، 2013م، ص7-44.

(4) ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز. تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، جدة، ط3، 1992م، ص263.

(5) عن مباحث المنطوق والمفهوم، ينظر: بشير الكبيسي، مفاهيم الألفاظ ودلالتها عند الأصوليين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007م.

(6) ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط6، 1985، ص95.

(7) المرجع نفسه: ص 113.

(8) غافر، آية: 36.

(9) ينظر: ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب، ص379.

(10) عبد الرحمن بن عيسى المرشدي، شرح عقود الجمان في المعاني والبيان، قرأ متنه مقابلا بأصوله، ج1، عيسى العاكوب، ط1. دمشق، دار نينوى، 2017م، ص485.

(11) البابرتي، الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب، تحقيق: ضيف الله بن صالح العمري وترحيب الدوسري، ج1، ط1، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، 2005م، ص209.

(12) ينظر مثلا: بهاء الدين السبكي: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ج2، ص10-11. حسن العطار: حاشية العطار على شرح الجلال، ج1، ص12. الزركشي، تشنيف المسامع بجمع الجوامع، ج1، ص336.

(13) الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام، ج3، ص66.

(14) ينظر: القرافي، شرح تنقيح الفصول، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، ط1، 1973م، ص53.

(15) ينظر: الغزالي. المستصفى، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1993م، ص265.

(16) الشنقيطي: نشر البنود، ج1، ص94.

(17) عن شبه تمام الاتصال، ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص237. ويسمى الاستئناف البياني، ينظر: ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب، ص500. وينظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج6، ص476.

(18) ينظر: السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص174.

(19) المزمل، آية: 20.

(20) آل عمران، آية: 89.

(21) وعندي أن إيراد معنى السببية في جملة معاني (الفاء) في كتب النحو لا يصح؛ لأن التعليل حاصل بقوة خارجية، وهو لازم الترتيب الذي تسبب به الفاء، لا الفاء مباشرة.

(22) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج3، ص304.

(23) القيامة، آية: 23.

(24) ينظر: القشيري. لطائف الإشارات. تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، د. ت. ج3، ص657.

(25) ينظر: الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية. تحقيق: محمد صالح موسى حسين، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط1، 2010م، ص355. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص225. ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، ص282.

(26) القصص، آية: 8.

(27) ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج3، ص394.

(28) الأنعام، آية: 53.

(29) البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي حامد، مكتبة الرشد، السعودية، ط1، 2003م، ج13، ص232، رقم الحديث: 10245.

(30) عن استعارة الحروف عموما، ولام التعليل خصوصا، ينظر: أحمد التونسي، جامع العبارات في تحقيق الاستعارات، تحقيق: محمد رمضان الجربي، مكتبة الآداب القاهرة، ط1،، (2010م)، ص371 وما بعدها.

(31) ينظر: ابن قتيبة، المسائل والأجوبة في الحديث والتفسير، تحقيق: مروان العطية، محسن خرابة، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1990م، ص255.

(32) آل عمران، آية: 139.

(33) الفتح، آية: 27، ينظر: ابن هشام: مغني اللبيب، ص39.

(34) البقرة، آية،: 278، الرازي: أنموذج جليل، ص99.

(35) الأعلى، آية: 9، ينظر: ابن هشام: مغني اللبيب، ص39.

(36) ينظر: ابن هشام، مغني اللبيب، ص39-40.

(37) ينظر: البسيلي، التقييد الكبير، ج1، ص368. وكذلك الشرط حين يكون الشرط هو الموضوع، نحو: (إذا رُزقتُ ذكرا فاختنه)، ينظر: عبد المجيد الزروقي، أصول الفقه، ص713.

(38) آل عمران، آية: 139.

(39) الدخان، آية: 7.

(40) مريم، آية: 18.

(41) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج10، ص373، رقم الحديث: 6263.

(42) الأعلى، آية: 9. ينظر: ابن هشام: مغني اللبيب، ص35.

(43) الزخرف، آية، :81.

(44) ينظر: ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص1.

(45) ينظر: ابن هشام، مغني اللبيب، ص40.

(46) ينظر: الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، ص360.

(47) الغاشية، آية: 23.

(48) ينظر: ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، ص101.

(49) البقرة، آية: 150.

(50) ينظر: ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، ص101.

(51) الإنسان، آية: 1.

(52) ق: آية، 30. ينظر: ابن جني، الخصائص، ج2، ص464. وابن هشام الأنصاري، ص460. وابن منظور، لسان العرب، ج11، ص706.

(53) وحرف (هل) قد يُضمَّن بقوة الكلام معنى الأمر، ومعنى النفي، نحو قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، الأنبياء، آية: 108، وقوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ الحاقة، آية: 8، كما نص عليه السيوطي، وهذا يعني أن مثل هذه المعاني ليس حقها أن توضع ضمن معاني الحرف الأصلية. ينظر: السيوطي: مقدرات القرآن، ص293-294.

(54) الصافات، آية، :147، ينظر: الفراء، معاني القرآن، ج2، ص393. ونقله ابن جني، ينظر: ابن جني، الخصائص، ج2، ص463.

(55) ينظر: ابن جني، الخصائص، ج2، ص460. تكون على معنى (بل) بشرطين: تقدم نفي أو نهي، وإعادة العامل. ينظر: ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، ص91-92.

(56) النحل، آية: 15، ينظر: الثعالبي:، فقه اللغة وسر العربية، ص362.

(57) ينظر: أحمد التونسين جامع العبارات، ص377.

(58) ينظر: المرجع نفسه، ص376.

(59) طه، آية: 44.

(60) ينظر: ابن هشام الأنصاري، مغنى اللبيب، ص379.

(61) هم، فيما نقل، قطرب والربعي والفراء وثعلب وأبو عُمر والشافعي، ينظر: ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، ص464.

(62) البقرة، آية:58.

(63) الأعراف، آية:161.

(64) آل عمران، آية:43.

(65) ص، آية: 12، 13.

(66) ق، آية: 12، 13، 14.

(67) ينظر: صلاح الدين العلائي، الفصول المفيدة في الواو المزيدة، ص74.

(68) الزلزلة، آية: 1، 2.

(69) ينظر: ابن هشام الأنصاري، شرح قطر الندى، ص337.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

1. ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تحقيق: عبد الجواد خلف، دار الوفاء، مصر، ط1، 1990م.
2. ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط3، 1986م.
3. ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، 1984م.
4. ابن قتيبة، المسائل والأجوبة في الحديث والتفسير، تحقيق: مروان العطية، محسن خرابة، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1990م.
5. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1414هـ.
6. ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط1، 1985م.

7. ابن هشام الأنصاري، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة خاصة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 2008م.
8. أحمد ابن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2001م.
9. أحمد التونسي، جامع العبارات في تحقيق الاستعارات، تحقيق: محمد رمضان الجربي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2010م.
10. ألفة يوسف، تعدد المعنى في القرآن - بحث في أسس تعدد المعنى في اللغة من خلال تفاسير القرآن، دار سحر للنشر، تونس، ط1، 2002م.
11. الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، علق عليه: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت – دمشق، د.ط، د.ت.
12. البابرتي، الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب، تحقيق: ضيف الله بن صالح العمري وترحيب الدوسري. مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، ط1، 2005م.
13. البسيلي، التقييد الكبير في تفسير كتاب الله المجيد، تحقيق: عبد الله الطوالة، بدون ناشر، ط1، 1992م.
14. بشير الكبيسي، مفاهيم الألفاظ ودلالتها عند الأصوليين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007م.
15. البيهقي. شعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي حامد، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 2003م.
16. الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: محمد صالح موسى حسين، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط1، 2010م.
17. حسن الشافعي ابن العطار، حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط د. ت.
18. الرازي، زين الدين محمد بن أبي بكرن أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب التنزيل، تحقيق: عبد الرحمن المطرودي، دار عالم الكتب، الرياض، ط1، 1991م.
19. الزركشي، تشنيف المسامع بجمع الجوامع، تحقيق: سيد عبد العزيز، وعبد الله ربيع، مكتبة قرطبة للبحث العلمي وأحياء التراث، ط1، بيروت، 1998م.
20. الزمخشري. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ.

21. عادل فاخوري، محاضرات في فلسفة اللغة. دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2013م.
22. عبد الرحمن بن عيسى المرشدي، شرح عقود الجمان في المعاني والبيان، قرأ متنه مقابلا بأصوله: عيسى العاكوب، دار نينوى، دمشق، ط1، 2017م.
23. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، جدة، ط1، 1992م.
24. عبد الله العلوي الشنقيطي، نشر البنود على مراقي السعود، تقديم: الداي ولد سيدي أحمد رمزي، مطبعة فضالة، المغرب، د.ط، د. ت.
25. عبد المجيدالزروقي، أصول الفقه - مسار عملية استنباط القانون الإسلامي، منهجية الفقه وفلسفته، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2017م.
26. الغزالي. المستصفى، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993م.
27. الفراء، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط1، د. ت.
28. فرانسوا ريكاناتي، المعنى الحرفي، ترجمة: أحمد كروم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1،2018م.
29. القرافي، شرح تنقيح الفصول، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، ط1، 1973م.
30. القشيري، لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، د. ت.
31. محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ط، 1990م.
32. محمد رشيد رضا، مقدرات القرآن، تحقيق: جانر أقدمير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2018م.